عبدالله المناعي .. يحنّ إلى طيبة الناس ومسرح أيام زمان

◆ **جهاد هديب** (الشارقة)- «زمـان.. لمّا كنا «صغارية»، قمنا نحن أطفال الفريج بإعادة قول الحكايا و «الخراريف» الشعبية. فيبدأ أحدنا القول: كان يا ما كان من قديم الزمان وسالف العصر والأوان.. وكان.. وكان، ثم يكمل آخر بقية الحكاية مقلدا صوت المطر والبرد والحرّ. لكنا نحذف أكثر من نصف الحكاية كي نلعب من جديد. وقد كان لي من العمر سبع أو ثماني سنوات.. وكان بيتنا بالشارقة في منطقة غرب». بهذا القَدْر من التركيز الذهني العالي، وبمحاولة لملمة أشلاء ذاكرة طفولة شخصية وبرغم حالته الصحية التي جعلت قدرته على الكلام صعبة، بدأ الفنان الكبير عبد الله المناعي حديثه إلى «الاتحـاد» ضمن حلقات ننشرها خلال أيام رمضان يتحدث فيها مبدعو الإمارات عن ذاكرتهم مع هذا الشهر الفضيل.

غير أنّ هذا هو كل ما يتذكره من طفولة باتت الآن نائية، حيث تمرّ بمخيلته صور كثيرة يودّ لو يستطيع الكلام عنها، لكنه يقول «كنّا نلعب التيلة، في رمضان». وهي كرّات البلور التي كان الفنان المناعي وأقرانه من أطفال «الفريج» يمارسون من خلالها أنواعا مختلفة من هذه اللعبة. مع ذلك كان يكرر كلمة «مسرحية» ويلّح عليها كثيرا كما لو أن ثمة شيئا ما من الكلام يتلكأ هناك على طرف لسانه الأقرب إلى الشفاه.. «مسرحية» .. «تيلة» لكنه يقول «بدأت أكتب مشاهد مسرحية، في تلك الطفولة، أدخلت إليها ألعابا شعبية»، بحسب ما فهمنا من إشاراته، بصحبة الدكتور والفنان التشكيلي محمد يوسف، الذي لولاه لما كان لهذا الحوار أن يتمّ.

ثم أشار إلى أنه بعد ذلك توجّه إلى «مسرح خالد» التابع لجمعية الشارقة للفنون الشعبية والمسرح، وكـان، بصحبة زملائه يتمرن على التمثيل في مسرحية اشتملت على عناصر منها المطر والبرد والحرّ، ولعبة التيلة.

وعن شخصيات كانت مؤثرة في طفولته أشار الفنان عبدالله المناعي إلى أن هناك شخصية «يْسمونه، «خِبْلَة» يجري وراءنا ويقذفنا بالحصى، كلما مرّ بنا وصرخنا خلفه: «خبلة وتايه».. وكان هناك شخص آخر، لكن جنونه كان «نص نص» كان يقول كلاما لا يفهمه أحد وعندما يسمعه الناس يضحكون .. ومن قرطاس كبير يحمله بين يديه، يشبه تلك التي يستخدمها موظفو الدوائر الحكومية في أيامنا، كان يقرأ كلاما عبارة عن طلاسم، وكان يثير ضحكنا نحن الأطفال أيضا». ثم يتساءل المناعي كلازمة في آخر كل معلومه يقدمها لنا بقوله «وْشو بعد؟ لا أتذكر شيئا، لكن شخصية «الخبلة» تركت أثرا فيّ».

وفي رده على سؤال حول إنّ كان يتوقع يوما ما أن يكون مخرجا وممثلا قال الفنان عبدالله المناعي، الحائز على جائزة الإمارات التقديرية للعلوم والفنون والآداب للعام الماضي «لا، لكنني في مرحلة مبكرة كنت أكتب حوارات تدور بين أشخاص أثناء ما يقومون بشيء ما مما نرى الكبار يفعلونه ثم نقوم بتمثيله، أنا وأبناء «الفريج» ما إن ننتهي من صلاة التراويح»، مشيرا إلى أن ما كان يفعله في فترة مبكرة من حياته هو ممارسة نوع من الكتابة في دفاتره المدرسية وفي قصاصات ذات صلة بالمسرح أو التمثيل الذي كانوا يقلدونه، وكذلك من المتابعة البسيطة، سواء من خلال العروض السينمائية التي كانت تزور الشارقة جالبة الأفلام الهندية والمصرية أو من خلال التلفزيون الذي كان بالأبيض والأسود؛ كلها جميعا قد راكمت لديه خبرة أسهمت في دخوله إلى عالم الفن.

ويتابع «انتقل ذلك إلى المسرح، فيما بعد عند كتابة النص المسرحي، أي أنني عندما كنت أكتب كنت أتذكر ليس تلك الألعاب وحدها التي كنّا نلعبها أطفالا ثم نقوم بإدخالها إلى ألعابنا المسرحية، بل تلك «الحالة» النفسية لدينا نحن الأطفال، حيث كنا نشعر بالفرح الغامر».

ما يعني أن كتابة النص الأدبي لعمل مسرحي ما لم تكن تعتمد على الذاكرة الشعبية وحكاياها فقط بل على الخبرة الذاتية والتجربة الإنسانية لمجموعة الأطفال الذين كـان يلعب معهم عبدالله المناعي ألعابا جماعية، بما في ذلك حفظه عن ظهر قلب لما هو نافر في سلوك بعض الشخصيات الاجتماعية وحركاتها وطبيعة أدائها التلقائي، سواء في رمضان أو في أي شهر آخر، الأمر الذي يؤكد أن عبدالله المناعي كان منذ البداية أكثر قربا إلى الحياة الإماراتية اليومية ببساطتها وعمقها الإنساني والعفوي، وبالتالي هذا ما جعل أعمال مسرح الشارقة الوطني تلقى إقبالا جماهيريا قوامه جمهور العائلة، إلى حدّ

كان المسرح واقعياً إلى حدّ أنه تسجيلي، وله صلة بما يحدث في البحر والبرّ

أن الأيام التي كان يتم تخصيصها للنساء كانت تساوي عدد الأيام التي يحضر فيها الرجال من الجمهور، بل كانت النساء أكثر قدرة على احتمال تقلبات الطقس، وحتى إن لم يجدن كرسيا فارغا كنّ يجلسن أرضا ولا يعُدْنَ بصحبة أطفالهن إلا بعد انتهاء العرض. كان المسرح آنذاك واقعيا إلى حدّ أنه تسجيلي، وله صلة بما يحدث في البحر والبرّ بما في ذلك العادات والتقاليد، وكان ذلك منتصف السبعينيات.

أما أجمل المسرحيات إلى قلبه فهي «لا» التي تتناول القضية الفلسطينية، أو علاقة مؤسسة مجلس الأمن بها على وجه التحديد، وبما لا يخلو من إسقاطات سياسية على الواقع العربي في راهنيته وضعفه، حيث كان أول ظهور لعبد الله المناعي ممثلا في دور في مسرحية «مخرج فاشل» من إخراج الدكتور محمد يوسف، ليتولى هو بعد ذلك الإخراج في مسرح الشارقة الوطني متأثرا بالمخرج صقر الرشود، ثم ليقدم الكثير من المسرحيات تأليفا وإخراجا وفقا للحس الشعبي ذاته الذي كان يجمع الناس حول فنه.

وعن ذلك الحنين إلى طفولته، يختم الفنان المناعي حديثه لـ «الاتحاد» بالقول « أحن إلى الطيبة، وجوهر المسرح، والرؤية المسرحية الجلية بلا ضباب».

عبدالله المناعي (تصوير حسام جودة)